نظرة من الغرب الى فيصل

تميز رد الفعل لدى الغربيين على وفاة جلالة الملك فيصل رحمه الله بشعور من الصدمة والتأثر ليس من المألوف ان تعبر عنه وسائل الاعلام الغربية خاصة عندما يكون المتوفى رئيس دولة تفصله عن الغرب مسافات بعيدة وفوارق كثيرة • وهذا الشعور الذي عكسته عناوين الصحف التي حملت نعي المليك الراحل كان يعبر عن الاحساس المبهم بان زوال شخصية مثل شخصية الفيصل كانت قد فرضت نفسها بقوة على المسرح العالمي باعتبارها نموذجا للحكمة والاعتدال والاتزان انما يعني خسارة عنصر أساسي من عناصر الاستقرار والاطمئنان في عالم يسوده الاضطراب •

وفي مجال التعبير عن ذلك نعت صحيفة تايمس الملك فيصل بمقال عنوانه « وفاة ملك صالح » • وقالت صحيفة غارديان عن وفاته انه « انهار ركن من اركان العرب » • ومثل هذه العبارات في مجال الاشارة الى وفاة الملك فيصل، وردت على لسان معظم الزعماء الغربيين الذين بعثوا ببرقيات تعزية بالمناسبة الاليمة •

● شعور من القلق

وعلى وجه التحديد فان رد الفعل الغربي كان يداخله شعور ظاهر من القلق من احتمال حدوث تطورات غير مرتقبة في المجالات المتعددة التي كان فيها تأثير الملك فيصل هوالاكثر قوة وظهورا• من ابرز هذه المجالات مجال البترول والفوائض المالية ••• ثم موقف المملكة من ازمة الشرق الاوسط باعتبار ان ازمة الشرق الاوسط تجد لنفسها طريقا للتأثير المباشر على امدادات البترول العالمية وبالتالي على الاقتصاديات

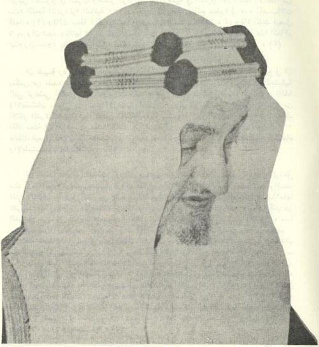

العالم الخارجي ٠ وكان هذا الاحساس بالقلق قويا الى حد ان كاتبة فرنسية مثل ايفافورنيه قالت « ان العالم قد خطا بوفاة الملك فيصل خطوة نحو الهاوية ٠٠٠ اذ ان فيصل كان واحدا من عناصر التوازن في السياسة العالمية » (١) ٠ وعكس صحفي فرنسي آخر هو ايف كوو رأيا مماثلا اذ قال « ان الملك فيصل كان في نفس الوقت الرجل القوي في العرب وعنصر توازن بالغ الاهمية في الشرق الاوسط وواحدا من سادة اللعبة البترولية العالمية ٠٠٠ وسيكون لاختفائه نتائج خطيرة في هذه المجالات كلها » (٢) وقالت مجلة ايكونوميست وهي تردد صدى مماثلا « ان وفاة الملك فيصل لا بد وأن تبدو وكأنها تطرح خطرا جديدا على السلام ٠٠٠ حيث ان سلطة هذا الحاكم تجاوزت حدود بلاده كثيرا لكي تطال حياة الناس في كل مكان تقريبا ٠٠٠ » (٣)

ان طبيعة رد الفعل هذا توضح الى اي مدى كان جلالة الفيصل قد نجح في ان يعكس عن نفسه صورة للزعامة الواثقة المطمئنة في عصر عزت فيه الزعامات الحقيقية التي ترتضي الالتزام بالمبادىء الاخلاقيه والتي يشكل مجرد وجودها باعثا على الثقة والاطمئنان ، حتى في وسط الازمات والملمات ٠ ولم تكن سمات هذه الزعامة من الاثار المترتبة عن ازدياد اهمية المملكة عالميا بسبب تراثها البترولي ٠ وقد لا حظت ذلك مجلة ايكونوميست عندما قالت ٠٠ ان المال وحده لا يصنع الرجال العظام ٠٠٠ فالملك فيصل كان رجلا صاحب اخلاق ومزيجا نادرا في هذه الايام من التدين والدهاء والاطمئنان الداخلي » (٤)

ان العالم الغربي قد دفع الى ان يستزيد من التعرف على شخصية الملك الراحل منذ أزمة البترول التى بلغت ذروتها في عام ١٩٧٤/٧٣ عندما جعلت المواقف التي اتخذها الفيصل الغربيين يشعرون بذهول وهلع ان ازدهارهم وحضارتهم باكملها تقريبا انما يرتكزان الى طاقة محركة يملكها غيرهم ٠ ومنذ ذلك الحين جهد الكثير من الغربيين من اجل ان يستخلصوا من خلال مراقبتهم لشخصية فيصل وتصرفاته ما يستطيعون ان يستنتجوا منه مؤشرات لقرارات ذات تأثير حاسم عليهم وعلى حياتهم ٠ في تلك السنة ادخل فيصل سجل عظماء الرجال لدى الغربيين واحتلت صورته غلاف مجلة تايم الامريكية التي اختارته رجلا لعام ١٩٧٤ وقالت عنه في هذه المناسبة :ـ « ان رجل العام الذي اختارته مجلة تايم هذه السنة هو الملك فيصل بن عبد العزيز عاهل المملكة العربية السعودية ٠٠٠ فخلال سنة ١٩٧٤ اثرت اعمال فيصل وقراراته بشأن اسعار الزيت والمسائل المرتبطه بذلك تأثيرا متفاوتا على حياة وجيب كل كائن بشري على وجه الارض تقريبا ٠ وعلى الصعيد السياسى ايضا فان عام ١٩٧٤ تميز بالتماسك المتزايد في العالم العربي وبقوة متنامية تغذيها اضخم عملية انتقال لرؤوس الاموال في التاريخ ٠٠٠ وفي هذا كله لعب فيصل الداهية والمخلص لاهدافه دورا رئيسيا » (٥)

● ظاهرة الفيصلية :

لكن حتى قبل ان تضع ازمة الزيت في يد الملك فيصل القدرة الهائلة للتاثير على حياة كل كائن بشري على وجه الارض ، فان الغربيين ــ ومعظمهم من الباحثين والمؤرخين والصحفيين ــ الذين تعاملوا مع جلالته بالاتصال او بالمقابلة كانوا لا يستطيعون ان يواجهوا الظاهرة الفريدة التي يمثلها بالتجاهل • وسواء كانوا يخرجون من هذا التعامل بشعور من التعاطف أم نقيضه • فانهم لم يكونوا يملكون ان يتجاهلوه لماذا ؟

لأن فيصل كان يمثل في سلوكه الشخصي وفي اسلوبه في الحكم وفي منهجه السياسي شيئا مختلفا عما اعتاد الغرب ان يعتبره قمة التقدم في مجالات السياسة والديمقراطية واخلاقيات الحكم • كان فيصل بشخصيته يمثل تحديا مستمرا للمفاهيم الغربية •

كان الغربيون قد الفوا منظر قادة وزعماء من العالم الثالث يعتبرون ذروة التقدم وقمة الرقي بالنسبة اليهم ان يتهيأ لهم مجاراة الغرب في عاداته وتقاليده وفي مفاهيمه بالحكم ــ حتى ولو كان الامر لا يتعدى القشور الى اللب • اما فيصل فكان هو وبلده شيئا مختلفا •

وفي هذا يقول المؤلف البريطاني القاضي جيرالد سبارو •• ان المملكة العربية السعودية هي دولة فريدة ، ماضية في تجربة ليس لها مثيل في العالم • ان امة دستورها القرآن تقول ان من الممكن العيش والازدهار في هذا العصر الجديد المتميز بالتطور التكنولوجي ضمن اطار الحياة التي نص عليها القرآن • وهذا يعني ببسيط العبارة أنه بالنسبة للسعوديين ، فان الحياة هي الدين والدين هو الحياة ••• (٦)

تلك هي صورة التحدي الذى كان يفرض نفسه على الغربى الذي يقترب من فيصل او يتعامل معه • وبطبيعة الحال فان نظرات الغربيين كان يداخلها شعور من الارتياب في ان يكون ممكنا التوفيق وتحقيق الانسجام بين التمسك باهداب الدين والاخذ باسباب الحياة العصريه • ولا عجب في ذلك • فان الغربي يقيس الامور على تجربته التاريخية الخاصة • ومن الثابت ان التحلل الديني بدأ في اوروبا عندما اخذت القارة الاوروبية تشق الطريق نحو المدنية الحديثة • لذا فالغربيون يتوقعون منطقيا ان تتكرر نفس الظاهرة في انحاء العالم الاخرى •

ان المقارنة على هذا النحو تبرهن في الحقيقة عن عجز الغرب عن ادراك حقيقة الشريعة الاسلامية وكيف انها صالحة للتفاعل مع كل البيئات وكل العصور . لكن من المحقق ان الاقتناع مترسب لدى الغربيين الى حد انهم ما كانوا ليعيروا اهتماما للتجربة السعودية لولا انها فرضت نفسها على الساحة العالمية في وقت كان فيه على رأس الحكم في المملكة ، الملك فيصل . وقد لمس الغربيون في جلالته رحمه الله من المزايا الشخصية والقدرات ومن الممارسات الديمقراطيه ما كان يفرض عليهم ان يعيدوا النظر فيما يعتبرونه من البديهيات المسلم بها .

كانت هناك جوانب في شخصية الفيصل لا يستطيع الغربيون ان يتحللوا من الالتفات اليها وتسليط الاضواء عليها . ومن ابرز هذه الجوانب اعراضه عن الدنيا وتقشفه في معيشته وتدينه وذكاؤه وعمق بصيرته .

ان اول ما كان يستلفت انتباه الغربي هو نبل المظهر الخارجي الذي كان يتحلى به الفيصل رحمه الله . ولعل الكاتب والمؤرخ الفرنسي بنوا ميشان هو افضل من عبر عن الشعور بالاعجاب امام هذه السمة المميزة اذ يقول .. لست ادري من هي الشخصيات التي سيقدر لي المستقبل ان التقي بها لكنى اشك انه سوف يضعني في مواجهة شخص يفوق الامير فيصل في الاناقه وفي نبل السمات . ان النبل ينبعث من كلماته ومن حركاته ويبدو انه ينبعث حتى من ثنايا ردائه . وليست هذه السمة من نتاج مزاياه الشخصية فحسب . بل هي نتيجة تفاعل امتد على مر عصور طويلة . لقد اقتضى الامر زمنا طويلا لتشكيل شخص يمثل هذه القسمات الارستقراطية . يألها من هيبة ! ويالها من سرعة استيعاب ايضا ... ان العرب بعيونهم الحادة وانوفهم البارزة كثيرا ما يشبهون الصقور . لكن لدى الامير فيصل ، فان النظرات تتسم بانسانية التعبير . ، (٧)

وكان زهد الملك في البذخ واعراضه عن الحياة المترفه من اوائل السمات التي استقطبت اهتمام الغربيين ـ لاسيما وان العديد منهم يحمل عن ملوك الشرق صورا مشوهة مستوحاة في معظمها من صفحات الف ليلة وليلة . ومنذ ارتقاء فيصل الى العرش وحتى بعد وفاته ظلت هذه السمة المميزة تحظى بتركيز الاضواء عليها . ففي عام ١٩٦٥ ، قال المؤرخ الامريكي توماس ابركرومبي الذي اشهر اسلامه بعد زيارته للمملكة « ان فيصل الملك الحالي للعربية السعودية يحيا حياة بسيطة في نفس القصر المتواضع الذي كان يشغله لسنوات كوزير للخارجية » (٨) وكان اخرون يلاحظون ان بساطته في الحياة وصلت حدودا بعيدة وانها تقترن بحرص شديد على اموال الدولة الى حد ان البعض كانوا يأخذون عليه هذا الامر خاصة في المجالس التي لم تكن قد ألفت مثل هذا الحرص . ويقول الكاتب الفرنسي ردبير ذى سوزانيه « بهذا الصدد » ان

● خـــلال احدى زيارات الفيصـــل لانجلتـــرا ولقاء مع الملكة اليزابيـت

فيصل يحيا حياة متناهية في بساطتها حتى ان البعض يعيب عليه انه شديد التمسك باموال الدولة ٠٠٠ ان ما يدعى « القصر » في الرياض ليس في الحقيقة الامجموعة من المكاتب يغادرها كل مساء ليعود الى دارته ٠٠٠ التي هي عبارة عن بيت كبير لا يتميز بشيء عن بقية البيوت الا بالمسجد الصغير المجاور له ٠٠٠ (٩)

ويستطيع المرء ان يسترسل كثيرا في ايراد ما قاله الغربيون عن جلالة الفيصل في هذا المجال ٠ والحقيقة هي ان الكثيرين من الكتاب الغربيين كانوا يرون في هذه الفضيلة اكثر من مجرد سمة شخصية بل يعتبرونها مثالا يقتدى من جانب المواطنين ومصدر قوة لفيصل في الحكم اذ تجعله في مأمن من اية لائم ٠ وقد لاحظ ذلك كنيث ماكنزي الذي قال « ان قوة الملك تكمن في انه موضع احترام كمثال يقتدى به ٠٠٠ فالبلاط الملكي لم يعد يستنفذ ١٥٪ من ميزانية الدولة ٠٠٠ والملك نفسه يعيش مع زوجته في قصر من اكثر القصور تواضعا متنزها عن ملذات حياة القصور » (١٠) وكتب الصحفي الامريكي لي نمريغز يقول « ان حياته الشخصية هي اكثر تقشفا من حياة العديدين من رعاياه ٠ فالملك يكره البذخ ٠ وبعد ان خلف اخاه سعودا أعلن ان قصر الحمرا افخم اكثر من اللزوم بالنسبة لي ٠٠٠ لذا فقد امر باستعماله للضيوف

اما في ملبسه .. فانه تجنب الملابس العصرية مكتفيا بالثوب القطني التقليدي الذي يرتديه العرب تحت العباءة » (١١)

وقد ظل الملك الراحل على هذا المنهج الزاهد في الحياة حتى بعد ان اصبح حديث العالم كله منصبا على ثروات المملكة وعائداتها من البترول وقالت مجلة تايم « ان فيصل رغم ثرائه وقوته عاش ببساطة وبتقشف . فقد كان دستوره القرآن وعاداته رجل البادية » ولاحظ الكاتب الامريكي ديفيد او ستر ايجر « ان عاهل الصحراء. بالرغم من ثرائه الكبير كان رجلا ذا ذوق بسيط ومسلما متدينا للغاية» (١٢)

● حياة موزعة بين العمل والصلاة

وكان تفاني جلالة الفيصل في خدمة رعيته هو ميزة اخرى فرضت نفسها على انتباه الكتاب الغربيين . ولم يشغله ذلك عن تادية فروض الصلاة في اوقاتها رغم اهتماماته العديدة . ويقول الكاتب الفرنسي جان بوجيه « ان فيصل كرس نفسه لخدمة البشر . فقد كان يعيش حياة زاهدة موزعة بين العمل والصلاة ... وفي فجر كل يوم كان أول عمل يقوم به هو التوجه بالصلاة الى خالقه . وأحيانا عند المغيب ، كان يتوغل في داخل الصحراء ، وهناك وحيدا في مواجهة ربه كان ينصرف الى الصلاة والتأمل حتى حلول الظلام ... » (١٣) ويردد نيكولا بروفيت وجهة نظر مماثلة اذ يقول « ان اهتمام فيصل برعاياه لا ينبثق من التقاليد المتوارثه فحسب بل من ايمانه الديني العميق. فالملك يصلي خمس مرات في اليوم كما تأمر بذلك الشريعة الاسلامية . وعندما يكون في جدة يحب ان يحمل معه سجادة الصلاة الى الشاطيء ويتأمل الى جوار البحر ..

ان نزعة فيصل الى التأمل كانت ظاهرة بارزة اشار اليها معظم الذين كتبوا عنه وعن سماته الشخصية . فقد كانوا لا يملكون الا ان يلحظوا بانه في وجه المليك الذي قلما كان يترك للانفعالات الخارجية مجالا لترتسم على قسماته كانت هناك عينان تبدوان مستغرقتين في تأمل لا ينقطع . ويقول الصحفي البريطاني ادوارد دني « ان للملك عينين في محجرين عميقين سوداوين وسط هالة داكنه تطبع فيك صورة للتأمل الصامت » (١٤) اما الصحفي الفرنسي روبير دي سوزانيه فيقول « ان نظراته الحادة المتفحصة تستقر بسرعة على محدثه وتحاول ان تنفذ الى افكاره الداخلية لتنكفيء بعد ذلك الى تأمل داخلي بعيد جدا عن اللحظة الراهنة ... » وقال صحفي

بلجيكي في جريدة لاديرنيير اور « ان وجه فيصل يبدو متعبا احيانا لكن نظراته تبدو كانها مستغرقة دائما في تأمل عميق » (١٥)

واذا كان التأمل والاستغراق في التفكير هما ظاهرة كان ينم عنهما وجه الفيصل وقسماته فان من الانطباعات الاخرى التي يخرج بها المرء مما كتبه الصحفيون الغربيون ان جلالته يختلف كثيرا عن صورة رجال السياسة الذين تكون تصرفاتهم محكومة بالانفعاليه · ويقول ابركرومبي مشيرا الى ذلك « ان تصرفاته تتسم ابرقة كبيرة في المعاملة ··· ومعالمه تظل هادئة وساكنه لكن عينيه تبرقان وهو مسترسل في الحديث »

لكن هذه النزعة الى التأمل كانت تخفي وراءها طاقة متفجرة للعمل لا تعرف حدودا للملل او للتعب « ويقول الكاتب الامريكي اوستدايخر » « ان الملك اشتهر بانه اكثر ملوك العالم انكبابا على العمل ··· وكانت اكبر انتكاسة أصيب بها شخصيا هي عندما تحتم عليه أن يخفض ساعات العمل يوميا من ١٨ الى ١٤ ساعة بسبب قرحة المعدة التى كان يعانى منها »

● اتصال وثيق مع الشعب

عندما يخرج المرء عن اطار الحياة الشخصية ـ رغم انها عنصر بالغ الاهمية في التأثير على الحكم ـ فان الامر الرئيسي الثاني الذي كان يثير اعجاب الغربيين ودهشتهم هو مدى نجاح الحكم السعودى في ان يقيم اتصالا وثيقا مع الشعب على نحو يؤمن التفاعل المتبادل الضروري من اجل الاسهام المشترك في تطوير البلاد · ورغم ان هذا الاسلوب في التعامل بين اولي الامر وافراد الشعب منظم باحكام الشريعة الاسلامية فلا بد من الاشارة ان معظم الغربيين يستمدون نظرتهم الى الحكم في العالم الاسلامي مما قرأوه عن الامبراطورية العثمانية في اواخر عصور انحطاطها · وكان التناقض البالغ بين هذه الصورة والصورة التي يشهدونها في مجالس الملك فيصل يجعلهم يلتفتون باهتمام بالغ الى هذه الظاهرة الديمقراطية المختلفة اختلافا تاما عما الفوه من مظاهر الديمقراطية في مجتمعهم ·

ولا بد من الاشارة على الفور ان العديد من الغربيين يقدرون هذه الظاهرة حق قدرها ولا يغبطونها اي شيء من قيمتها وأهميتها بل يرون فيها منهاجا آخر للديمقراطية جديرا بالتأمل وبالاعجاب · ويقول كاتب بريطاني مثل كلود موريس «ان الملك فيصل كان على طريقته الخاصة رجلا ديمقراطيا للغاية · والمقارنة الوحيدة

التي استطيع ان اقيمها هي لوان رئيس وزراء بريطانيا يفتح ابوابه يوميا من الساعة العاشرة صباحا حتى الواحدة بعد الظهر لاستقبال اي زائر يقصد مكتبه » (١٦)

وابرز مظهر لهذه الممارسة الديمقراطية كان في نظر الغربيين هو « المجلس » الذي يعقده الفيصل ويستقبل فيه اي قاصد يطرق بابه ونظرا الى ان هذا امر غير مألوف في الغرب حيث لا تتم المقابلات الا بمواعيد مسبقة ، وحيث يكاد يكون من المستحيل الوصول ليس الى الحاكم بل حتى الى الوزراء او كبار المسؤولين فان من الطبيعي ان تترك ظاهرة «المجلس» انطباعا قويا لدى الكتاب والصحفيين الغربيين فكانوا يسترسلون في الحديث عنه وفي وصف ما يدور فيه · ويروي كلود موريس انه حضر في السنة الماضية واحدا من « مجالس » جلالته اليومية فيقول « نظرا لاني كنت الشخص الغربي الوحيد في ذلك اليوم فقد تقدمت مجموعة السبعين شخصا تقريبا الذين جاءوا الى المجلس · وعندما دخلت القاعة كان الملك جالسا بمفرده في صدرها كان يبدو متعبا ··· وبعد المصافحة اشار الي بان اجلس الى يمينه بينما توزع الباقون الذين دخلوا معي في ارجاء القاعة · بعد ذلك اخذ هؤلاء الاشخاص يتقدمون الواحد تلو الآخر ويضعون في يد فيصل العرائض والخطابات · احد الشباب سلم الملك رسالة واردة بالبريد الجوي تحوي طلبا بالمساعدة المالية من قريب له في بريطانيا بينما قدم رجل اكبر سنا الى الملك ربطة من حجج التملك ليأخذ رأيه في موضوع يختص بالاراضي وبالعقارات ·

عندما كانت الاساليب الاعتيادية لا تأتي بنتيجة كانوا يجيئون الى هنا ليطلبوا النظر في قضاياهم · ويحتمل ان يكون الامر متعلقا بمعالجة طبية لاحد الاشخاص المحتاجين الى جراحة في بريطانيا او ربما باحد رجال البادية الذي يريد ان يرحل ويرغب في استعارة شاحنات من الجيش لنقل ممتلكاته واغنامه ·

كان فيصل يعالج كل هذه المطالب · وكان لا يحب ان يلمسه الناس ويبعد اي شخص يحاول تقبيل يده ـ مثلما فعل عدد من اصحاب العرائض » (١٧)

ومن المظاهر التي كانت تثير استغراب الغربيين ان جلالته كان يساوى بين جميع زائريه بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية ويقول نيكولا بروفيت « ان فيصل استمر في عادة المجلس التي يستطيع السعوديون خلالها ان يقتربوا من الملك برسائلهم او عرائضهم ··· وكان يستمع اليها بصبر مهما كانت الشكاوى متكلفة او طويلة ·· وكان يستطيع ان يكون في غاية اللطف مع بدوي من الصحراء يطلب الاصغاء الى مظلمة صغيرة » (١٨) ويلاحظ ديفيد او ستر ايخر « ان مجال الوصول الى فيصل ظل متاحا للرجل العادي ··· وكان باستطاعة اي سعودي ··· من اولاد اخوانه الامراء مثل ذاك الذى اغتاله او حتى ادنى راع من البادية ان يحضر مجالسه » ويقول

جان بوجيه ان « زواره كانوا يجيئونه من كل مكان ، من ابعد الواحات خلف صحاري الرمال بعضهم كان قد سار اياما وليالي ليلتقي بالملك ويتناول معه القهوة او الشاي »

ولم تكن هذه المجالس مقصورة على النظر في الشكاوى او العرائض فان «فيصل» كان يقصد بها ان يكون على مقربة من شعبه الى اكبر حد ممكن وكان يدعو الى مجالسه كل مخلوق من اغنى التجار الى افقر رجال البادية للتباسط معه في الحديث والبحث فيشؤونه وشجونه · وفي ذلك يقول فيصل «اننا نؤمن باننا نمثل الديمقراطية بارفع اشكالها رغم ان تكون ديمقر اطيتنا قد يكون غريبا على العادات الغربية » ·

وحتى خارج اطار المجالس فان جلالة الفيصل كان حريصا على ان يكون متهيأ لاي شخص يقصده ان يدنو منه ويروي لي غريغز «ان فيصل يعتبر نفسه خادما لعبيد الله وحتى في الشارع عندما يهم بالصعود الى المقعد الامامي لسيارته الكرايزلر نيويوركر البيضاء يحدث ان يتوقف لكي يستمع لاصحاب العرائض الذين لا يعدو بعضهم كونه من طلاب المال · ويروي احد افراد الحاشية انه في احدى المرات ، كانت قدم فيصل اليسرى في السيارة وقدمه اليمنى لا تزال على الارض عندما اخذ بدوي بسيط المظهر يعدو باتجاهه وهو يصرخ « فيصل فيصل » واراد الحرس ان يبعدوا الرجل لكن الملك منعهم عن ذلك وقال : « لا تبعدوه ، فقد يكون لديه شيء هام يريد ان يقوله لي » · وتحدث الرجلان لبضع دقائق ثم انصرف البدوي وعلى وجهه ابتسامه ·· (١٩) ·

وكان مما يثير دهشة الغربيين ان الملك لا يتخذ اية اجراءات احتياطية خاصة لحماية نفسه بل يختلط بابناء الشعب ويستقبلهم في ارفع مظهر من مظاهر الديمقراطية الحقه · وقد لاحظ الكاتب اليهودي الفرد ليلينتال ان « الملك فيصل ذهب ضحية لواحد من اعمق المظاهر الديمقراطية في حكمه · فالملك يتصدر مجلسا مفتوحا للجميع يحيط به اعضاء الديوان ورفاقه القدماء وهو يستقبل على قدم المساواة رؤساء الدول ورجال البادية الوافدين لتقديم عريضة بشأن ملكية بئر ماء او جمل » (٢٠)

وقد لاحظ الكتاب الغربيون ان هذا الالتصاق بين الملك والشعب ليس من قبيل تأمين الرعاية فحسب بل هو مظهر متجدد من المشاركة في شؤون البلاد ويقول المؤرخ البريطاني جيرالد سبارو « ان الملك فيصل يمثل شعبه بشكل متميز وفريد · فهو بطلهم وحاميهم · وهم يثقون به كما انه يتوجه اليهم ويحدثهم مباشرة في كل الشؤون التي تتصل بمصلحة الامة وبكرامتها · وبسبب هذه العلاقة ، فان نظامه ··· مدعوم باستمرار بتفاعل متواصل بين الحاكم والشعب يمثل ديمقراطية عملية تتناسب مع عقلية الشعب السعودي وتجعل من الممكن الاحتفاظ بالقرآن دستورا للدولة » (٢١) هناك قدر كبير من الديمقراطية في المملكة العربية السعودية · ففي الاسلام ، تعتبر الكرامة الفردية لكل انسان موضع احترام · ويظل رئيس الدولة يتعرف جميع

الذين لديهم عرائض يقدمونها او تظلمات يعرضونها ٠ وهذا الحق يمارس باستمرار واكثر من يلجأ اليه هم رجال البادية الذين ظلوا ينادون الملك باسم «فيصل» وعندما تنشأ ظروف تستوجب ذلك فان الناس يحاطون علما بما يجري ليس بواسطة « كتاب ابيض » بعيد عن الفهم بل بواسطة مليكهم الذي يتحدث اليهم مباشرة في وسطهم ٠

● في خدمة شعبه وبلده

هذه المزايا العديدة في شخصيته وهذا الاسلوب في الممارسة الديمقراطية وظفها جلالة الفيصل في خدمة شعبه وبلده على مدى ٥٠ سنة تقريبا ظل خلالها في السلطة او قريبا جدا من موقعها ٠ وهناك اتفاق بين الكتاب الغربيين ان تاثير جلالته في تطوير المملكة في هذه المرحلة كان عظيما وان توجيهه بشكل خاص كان ذا اثر حاسم ٠٠ فقد جهد الملك من اجل ان يطور بلده بدون صدمات ونجح في ان يبقيه في منأى عن التيارات الغربية التي عصفت بالعالم العربى ٠ ان هذا الرجل المخلص لدينه قد سعى لكي يظل وفيا للتقاليد مع العمل على محاربة النزعة المحافظة ذات النظر المحدود التي تعارض التطور » ٠

ان الانجازات التي تحققت في عهد الفيصل كانت اكثر ظهورا للعيان من ان تجوز عن انظار المراقبين الغربيين الذين كانوا مدركين رغم تلك الصعوبات التي تواجه هذا التطور ٠ ويقول القاضي جيرالد سبارو « ان عبقرية فيصل تكمن في انه ادرك ضرورة تحقيق التطور العصري لبلده ٠٠٠ وقد وجه جميع جهوده وكرس كل طاقاته لهذا الغرض ٠ لكن التطور اذا كان تحقيقه ضروريا لا ينبغي ان يتم باي ثمن كان ٠ فالدين يجب الا يضحى به في سبيل ذلك لان الدين هو الوثاق الذي يشد الناس الى بعضهم وسط مجموعة اخوية كبيرة ٠ لذا فان رسالته كانت تحقيق التطور ضمن اطار الاسلام ٠٠ وقد ترتب كل شيء على هذا الامر : من استغلال موارد البترول الهائلة الى برامج الاصلاح الاجتماعي المتعددة الى تدعيم التجارة وادخال التعليم العام وغير ذلك ٠

وقد ظلت المسيرة مندفعة ٠ فلم يكن الملك يتخلف لانتظار الذين يتأخرون ٠ واذا كان هناك اناس متخلفون عن الركب فانهم لن يعيقوا الاصلاحات التي تحقق منافع كبيرة للشعب ٠ » (٢٢)

ولاحظ تيسيري ديجاردان ان «الفيصل يعلن بان الامم لا تبنى بالمظاهر وبالبرامج بل بالافعال » ٠٠ ولانه موفور الثراء فانه ماض في بناء طرق ومستشفيات ومصانع ومدارس ٠ هناك الآن الاف الكيلو مترات من الطرق التي تشق الصحارى وتخترق الجبال وهناك مدارس تفتح بمعدل مدرسة واحدة كل ثلاثة ايام » وقال بول مارتن

« لقد حرص فيصل في مجال التنمية الاجتماعية على ان لا يوفر اي جهد او مال من اجل اتاحة التعليم والرعاية لمواطني المملكة ٠٠٠ وفي بلد لم يبدأ فيه التعليم رسميا الا منذ عقدين من الزمن ولم تكن فيه الا خدمات صحية بدائية فان الخطوات الهائلة التي امكن تحقيقها يستطيع المرء ان يلمسها بسهولة ٠ وربما كان من ابرز الشواهد التي ترمز الى اي مدى تمضي المملكة في توظيف اموالها في الخدمات الاجتماعية مستشفى الملك فيصل التخصصي الذي كلف ٤٠ مليون جنيه استرليني والذي سيجيء الى المملكة بالطب النووي »

والحقيقة هي ان الانجازات التي تحققت في عهد الملك فيصل كانت من الفخامة بحيث باتت الصحف الغربية تشير اليها مجرد اشارة على اعتبار انها من الامور المعروفة ٠ ويقول جي ٠اف جونز في هذا المجال « ان من الواضح ان انجازات فيصل هي موضع ادراك عام بحيث انه ليست هناك حاجة لتكرارها ٠٠٠ لقد كان يعمل في مكتبه بلا كلل من اجل ان يعيد تنظيم المملكة على نحو يتيح استخدام عائدات الزيت المتزايدة في ايجاد خدمات مرفقية في صحاريها الشاسعة ٠ واذا كانت المملكة العربية السعودية تجهد اليوم من اجل ان تختصر ٣٠ سنة من التقدم في ٥ سنوات فذلك لان فيصل ادرك ان الزيت هو مادة قابلة للنفاد وان من الضروري العمل على تصنيع البلاد ولم تكن الانجازات التي تحققت عبارة عن مشاريع غير مترابطة تم تنفيذها على اساس عشوائي بل ان الذي حدث هو « ان فيصل قد غير خلال عشر سنوات من الحكم ، وجه المملكة باعطائها اسس الدولة الحديثة » ٠ ويقدر الكاتب البريطاني رونالد بأن هذه السياسة التي ارساها الملك فيصل « يعمل بها السعوديون من اجل التحول من مجتمع قبلي ٠٠٠ ليس الى مجرد مملكة قوية الجانب فحسب بل الى مجتمع صناعي ايضا » ٠

● ملك يعني ما يقول

ان التطور الذى جاء به ازدياد عائدات الزيت كان ظاهرة مشتركة في معظم الدول المنتجة للبترول ـ باستثناء ان المملكة قد بدأت من الصفر تقريبا في حين بدأت دول منتجه اخرى من منطلقات افضل بكثير ٠ لكن السمة المميزة للتطور الذي كان ينشده فيصل هو انه ظل يقترن دائما بالتمسك بالقيم الدينية والتشبث بتقاليد العرب الاصيلة٠ويورد الكاتب البريطاني كلود موريس بالتفصيل حديثا على لسان الفيصل يتناول هذه الناحية والفلسفة التي تستند اليها اذ يقول « لقد كان ايمانه بالاسلام هو الاساس المتين الذي يستند عليه ٠ كان هدفه هو ان يحقق التغيير في بلده بخطى موزونة مع الحفاظ على

الايمان بالله وكان فيصل معارضا تماما لما كان يطلق عليه «المادية الملحدة للعالم الخارجي» وقد قال لي :.«ينبغي ان نتجنب السقوط في خطأ السير ببطء او بسرعة اكثر من اللزوم . يجب ان نبدأ بتثقيف شعبنا ... ان اعداء العرب يترقبون مثل هذه الاخطاء لذا فان من واجب العربي المخلص ان يمارس سياسة تجعله يكسب صداقة الجميع وليس عداوتهم . اني اخشى باننا اذا سلكنا سبيل الغربيين فان المادية ستترك في جوانب عديدة بصماتها التي لا تزول في اذهان الناس ، لقد كان موقنا بان عائدات الزيت الكبيرة اذا قصد بها ان تغذي مجرد سباق على تأمين الاحتياجات المادية للمجتمع العصري فانها ستكون عديمة الهدف في العالم العربي مثلما هي في الغرب . مالم تقترن بميزات الاسلام »

ان الدين كان مصدر التوجيه الاساسي للفيصل في شتى المجالات.وقد لاحظ كاتب فرنسي مثل جان بوجيه ان الفيصل الذي امتنع عن اللجوء الى سلاح البترول عندما كانت هناك اصوات تدعو الى ذلك لم يظهر اي تردد في ان يستخدم هذا السلاح بكل فعاليته عندما اصبح الامر متعلقا بالقدس التي جعل الفيصل من الصلاة في مسجدها الاقصى اولى الاماني التي يتطلع اليها .

ان العالم الغربي قد اصيب بصدمة مذهلة امام الفاعليه التي قاد بها جلالة الفيصل معركة البترول . ليس ذلك ان جلالته لم يحذر ويصدر الانذارات لكنها لم تلق الاذان الصاغية في حينها غير ان الامر اختلف رأسا على عقب بعد عام ١٩٧٣ . ودخلت صورة فيصل في اذهان الغربيين على انه ، رجل ذكي وصبور ... يتحدث قليلا لكنه يعني تماما ما يقول . وهذا درس تعلمه الغرب الذي لم يعر قدرا كافيا من الاهتمام لتحذيراته بشأن انتاج البترول عام ١٩٧٣ ، وقد انسحبت اثار هذه الجدية في التعامل ليس على تصرفات المملكة العربية السعودية فحسب بل الديبلوماسية العربية بكاملها فاسبغت عليها وزنا لم يكن لها في السابق واعطتها قدرة في التأثير كانت تفتقر اليها ..

ان السعوديين خسروا في فيصل باني نهضتهم الحديثة والعرب خسروا فيه زعيما قديرا ورجل دولة احوج ما كانوا الى حكمته ومزاياه في معركتهم الراهنة ... وحتى الغربيين أنفسهم يقرون بان موت فيصل كان خسارة كبيرة « وان اسم فيصل سيظل عالقا في الاذهان على انه شخصية سياسية مرموقة عالميا » .

المصادر

صحف ومجلات

جريدة فرنس سوار	٧٥/٣/٢٧
لوفيغارد	٧٥/٣/٢٦
مجلة ايكوتويست	٧٥/٣/٢٩
مجلة ايكونويست	٧٥/٣/٢٩
تايم	١٩٧٥/١/٦
ناشيونال جيوغرافيك ماغازين	يناير ١٩٦٦
لوفيغارو	١٩٦٦/٣/٢٩
كاهيان انتر ناشيونال	١٩٦٦/٦/٢٠
تايم	١٩٧٥/٤/٧
ديلي نيوز	١٩٧٥/٣/٢٧
لوفيغارو	١٩٧٥/٣/٢٦
ايفنتنغ نيوز	١٩٦٦/٢/١٨
لا دير نيبر اور	١٩٦٦/٢/٢٢
جريدة فويس	١٩٧٥/٤/٢٣
تايم	١٩٦٦/٦/٢٤
تايم	١٩٧٥/١/٦
بوسبيكيتف	١٩٧٥/٤/١٥
فاينتشيال تايمس	[١٩٧٥/٣/٢٧
ديلي اكسبرس	

كتب

١ ـ المملكة العربية السعودية الحديثة
ابن سعود
ملك الصحراء

٢ ـ للقاضي جبر الدسبارو
بنوا ميشان
ديفيد هوارت